

الإعلام الجماهيري و تنشئة الطفل: التقاطع و المفارقة ؟

د. بلختر محمد رضا
أستاذ محاضر "ب"
جامعة البليدة 2--

الملخص بالفرنسية :

Le processus de développement consiste en un changement global, devant aboutir au progrès des sociétés, selon le rythme et les aspirations chacune.

Pour cela, la science historique nous apprend, que la manière par laquelle sont agencées les différentes composantes de cette dynamique, est une variable décisive à son aboutissement.

Parmi celles-ci figure l'éducation. Une institution sociale en interaction permanente avec les autres institutions, par lesquelles se forme le macrocosme social. S'ajoute à cela, dans la même fonction de socialisation, la communication de masse, qui s'occupe de véhiculer les idées et valeurs des groupes sociaux en situation.

Pouvons-nous, cependant, parler de complémentarité pour ne pas dire d'harmonie, entre ces institutions, par rapport à une stratégie global du devenir ? Quel répercussions engendrerait un dysfonctionnement a ce niveau?

Sont-elles motivées pour et par les mêmes raisons sociales, à savoir produire ; la cohésion sociale, la formation du citoyen, le développement du génie créateur, des goûts artistiques et littéraires, de l'esprit critique, ainsi que celui de l'entreprise et du sens de la responsabilité et des valeurs nationalistes?

L'audiovisuelle et la littérature enfantine, sont les figures d'exemple par lesquelles nous avons choisi de traiter le sujet.

Peut-on, dans le cas de l'Algérie, parler d'ouverture médiatique, ou plutôt, de soumission engendrée par un certain déséquilibre structurel.

Loin d'être protagoniste du statut quo, ou porte parole des contre ouverture a l'extérieur, l'analyse que nous proposons de faire ici se veut critique, outrepassant le formalisme, par une approche historico- dialectique.

Les mutations que subie la famille algérienne, engendre a son niveau des turbulences que l'environnement tant bien que male à résorber. La télévision, la parabole, l'internet, les jeux vidéos, les livres et revus pour enfants, occupent de

plus en plus l'espace familiale, et agissent sur l'éducation des enfants, parfois au détriment des orientations de la famille.

Que font-ils donc ces moyens de communications ? Contribuent-ils à l'éducation des enfants ? Ou servent-ils de simple comble vide ? Moyens de distractions qui occupent l'enfant pour ne pas qu'il dérange ?

Quels programmes diffusent-ils ? Sont-ils en harmonie avec les orientations des parents, avec les valeurs nationale, et celles du développement nationale?

Autant de question et bien d'autres, que cet article essaiera d'éveiller l'intérêt

الملخص بالعربية:

التربية من حيث هي الفعل الهادف إلى تنمية مجموعة من الحالات البدنية والفكرية والأخلاقية في الطفل التي يتطلبها المجتمع عامة والوسط النوعي الذي يوجد فيه بشكل خاص⁽¹⁾, تجعل هذا الأخير يضع من أجل تحقيقها مؤسسات وأساليب تجد معانيها في تاريخه و حضارته و التي لا يمكن تغييرها كيفما نشاء و بما نشاء لارتباطها الوثيق ببنيته و بمؤسساته.

لكل مجتمع في مرحلة معينة من تحوله نظام تربوي يفرض نفسه على أفرادة بقوة لا يمكنهم تجاوزها⁽²⁾.

وإن استمرار المؤسسة التربوية مرهون بمشاركة أعضائها, حيث تكون الرموز والقيم الدالة عليها معترف بها و ظاهرة في طرق فعلهم و شعورهم و تفكيرهم, دون أن يلغي ذلك استقلاليتهم أو إمكانهم الاختيار من بينها ما يستحسن.

وهي من حيث ارتباطها بالاستمرار والتأسيس للشرعية الاجتماعية تطرح مشكلة الدينامكية الاجتماعية أو العلاقة مع المضمون الذي تؤسس له و كيفية الإجابة على مطالب التغيير وتراكمها⁽³⁾؟

فما حض المجتمع في إنتاج قيمه و حمايتها كما يبدو من خلال قنواته الإعلامية؟ أم هو يستوردها كما يفعل بالنسبة لشروط بقائه الأخرى (الفيزيكية) ؟ و في هذه الحال ما هو نموذج الشخصية التي يريدنا ؟ و هل من مشروع واضح المعالم في هذا المضمار نصبو إليه ؟

تمهيد:

تدخل دراسة العلاقة بين الإعلام و الطفل ضمن الانشغالات السوسيولوجية المنصبة حول إشكالية الدينامكية الاجتماعية و مظاهرها.

بناء على تصور تفاعلي للمؤسسات الاجتماعية يتجاوز المنظور البنائي الكلاسيكي , باعتبارها تكون المجتمع وتخضع له في آن واحد و لا يتأتى لها ذلك و هي معزولة عن بعضها , تلك هي الميزة التي تضفي عليها الطابع الديناميكي.

و هو تصور يعتبر الوجود الاجتماعي رهن التواصل بين مؤسساته.

هذا الوجود الكلي يجعل المجتمع يتمتع بالاستقلالية تمكنه من التأثير على مؤسساته، من خلال ما تنقله هذه الأخيرة من صفاته و تخضع له من قوانينه، كما تحضي تلك المؤسسات الاجتماعية بدورها باستقلالية معينة تمكنها من التأثير على بعضها البعض و من خلال ذلك على المجتمع المنصهرة فيه.

و تبين المؤسسات الاجتماعية من حيث المجال الاجتماعي الذي تتولى تنظيمه (صحة، ربية، أسرة، اقتصاد، دين، سياسة، إعلام... الخ) و هي في وظائفها و أساليب عملها تستلهم قواعدها ومبرراتها و أدواتها من المجتمع الذي أنتجها لضمان بقاءه. و تشكل التنشئة الاجتماعية بالنسبة لمؤسسة الأسرة إحدى أهم الوظائف التي أوكلها لها المجتمع.

فهي تعني بتحويل الكائن البيولوجي إلى كائن ثقافي يستطيع العيش في المجتمع والقيام بالأدوار التي ستوكل إليه و هي لأجل ذلك تهتم بتربيته و تكوينه و تزويده بالقيم و التصورات و المعتقدات و المعارف الضرورية التي تجعله يصل إلى ذلك.

و قد كشف لنا التاريخ أن المجتمعات البشرية تسعى دوما إلى التواصل مع بعضها البعض، وفق وسائل و أساليب مختلفة (حروب، تجارة، معرفة، سياحة، هجرة...)، فهي تحتاج إلى نسج علاقات مع بعضها على أساس الاهتمامات المتبادلة في مجالات الحياة المختلفة.

هذه العلاقات التي أصبحت اليوم بفعل النمو التكنولوجي تسم في مظهرها الإعلامي بالتعقيد و السرعة و بتطور الأساليب و امتداد مستويات تغطيتها إلى حد يكاد يكون من المستحيل تفاديها أو الوقوف في وجهها.

إن ما تعيشه الأسرة الجزائرية اليوم من تحولات في أسلوب حياتها أدى إلى تخليها عن الكثير من الوظائف التي كانت موكولة إليها مفوضة إياها للمؤسسات التي أنتجها التغيير، فهي مثلا، لم تعد تنتج ما تأكله و تلبسه و تركبه و تسكنه، كما أن تعقد الأدوار الاجتماعية و ما تتطلبه من تكوين متخصص في الأدوار المختلفة (صحة، تعليم، حرف...) و اتجاه أفرادها إلى العمل بالخارج طول اليوم جعل الأسرة توكل الكثير من مهامها إلى تنظيمات أخرى أكثر تأهيلا كالتعليم التي تولته المدرسة و العلاج الذي تولاه المستشفى و العيادات المتخصصة و البناء الذي تولته المكاتب الهندسية و الورشات المجهزة و الأمن الذي تولته للهيكل المتخصصة بمختلف فروعها و التنظيم العمومي للحكومة... الخ.

و من بين الأدوار التي يزداد فيها اعتماد الأسرة على المؤسسات التي تقع خارجها نجد الوظيفة الإعلامية-التواصلية.

لم تعد الوظيفة الإعلامية-التواصلية كصيرورة تنشؤية تتم بشكل كلي داخل الأسرة وبواسطتها بل أصبحت تندخل فيها مؤسسات اجتماعية متخصصة خارجة عنها تستخدم وسائل تكنولوجية ثقيلة و مكلفة و كفاءات تتجاوز إمكانيات الأسرة .

والسؤال الذي نطرحه في هذا المستوى يتعلق بمعرفة البرامج و المواضيع التي يستهلكها الأطفال عبر القنوات التواصلية التي تستخدمها الأسر، سمعية بصرية كانت أو مقروءة ؟
و هل يمكن لمؤسسات خارجة عن الأسرة أن تشارك هذه الأخيرة عملية تنشئة الأبناء بشكل يوافق توجهاتها و يضمن انصهارها الاجتماعي ؟

ماذا عن الإنتاج الأدبي و السمعي البصري الجزائري في ظل ما سمي بالانفتاح الإعلامي (المنافسة الدولية الغير المتكافئة) ؟

تنص المادة 15 من قانون اللجنة الوطنية للسينما الجزائرية على، "ضرورة بلورة نشاط سينماتوغرافي ذي طابع تربوي و ثقافي" ولكن لا يوجد كلام عن الإشكالات الإدارية التي تشكل حاجزا أمام تجسيد ذلك في الواقع ؟

فهل يمكن في ظل غياب توجه إعلامي محدد المعالم يخصص الطفل، وضآلة الإنتاج الوطني السمعي البصري الخاص بهذه الشريحة من المجتمع، الكلام عن وظيفة تنشؤية للإعلام الجماهيري الجزائري ؟

هل يستطيع الآباء متابعة ما يستهلكه أبنائهم من إعلام و هل لديهم الكفاءة و الوقت اللازمين لذلك ؟

أليس الإعلام من شأنه نشر قيم المجتمع وأغماطه للناشئة ؟ ما هي علاقة المؤسسة الإعلامية مع مؤسسات التنشئة الاجتماعية الأخرى، الأسرة، المدرسة، المسجد، النادي، المراكز الثقافية...هل هي تشتت مفاهيمها من مرجعية واحدة أم تستجيب لمشروع مجتمع متعدد ؟
كيف يؤثر الشتات التربوي القائم اليوم على تكوين شخصية الطفل الجزائري و بناء عقله وتفجير عبقريته ؟

هل يتوافق ذلك مع اهتمامات الشركات العابرة للقارات المهيمنة اليوم على الإنتاج السمعي البصري و الأدبي و على الإعلام العالمي ؟

ماذا عن مشروع النظام العالمي الجديد الذي من شأنه بعث قيم و مفاهيم تتوافق و أسلوب معين للحياة من شأنه تعميق تبعية بعض الدول للبعض الآخر و حصر مجالات تدخلها ضمن ما يسمح به التقسيم العالمي للأدوار أو بمعنى آخر في حدود كونها مجتمعات مصدرة (وليس منتجة) للمواد المستخرجة و مستهلكة للمواد المحولة التي تأتيها من الخارج ، لأنها و بمعنى آخر تعيش

ضمن أوضاع لا تحتاج فيها إلى إنتاج المعرفة , حيث يبقى ذلك مجال محظور نتدخل فيه الدول المنتجة للتكنولوجيا ؟

إذن هل من إستراتيجية وطنية متبعة اليوم لمساعدة الأسر على تنشئة أبنائها وهل يحقق الوضع الإعلامي اليوم التماثل الاجتماعي الضروري لاندماج أفراد المجتمع من جهة وتنمية الميول الشخصية والقدرات الإبداعية و المهنية لهم من جهة أخرى ؟
كيف يمكن تفسير الانقسام المتزايد الذي يعيشه الأطفال بين الواقع المعاش والخيال الذي تبثه الفضائيات ؟

كيف أصبح الطفل الجزائري يميل إلى الانعزال وإلى استهلاك ما يوضع بين يديه مما ينتج خارج مجتمعه ليس فقط كإعلام وأدب بأشكاله المختلفة بل و كلعب وألعاب أيضا , وهو الذي كان في وقت ما يصنعها ويبدع في تصميمها ويتمتع بها بما تجلبه له من ترفيه وتحقيق للذات ؟

الإعلام الجماهيري:

هي ممارسة اجتماعية عرفها الإنسان في القديم وإن اختلفت أساليبها وإمتداداتها تمثلت بشكل عام في نشر المعلومات و الأخبار و القيم عن طريق الوسائل المتاحة (النقش على الصخور, الألواح, الجلود, الكتب, البراحين في الأماكن العمومية, الصحف, المجلات, الإذاعة, التلفزيون, السينما, المسرح, الأشرطة, الأقراص, القنوات الكترونية.. NTC)*.

و جاءت عبارة اتصال جماهيري من المزج بين كلمتين, إحداها انجليزية تعني الكلمة «««(MASS)»» و الأخرى لاتينية «(MEDIA)» تعني الوسائط , حيث يعطي المزج بينهما معنى التقنيات التي يمكن بها التأثير من خلال نقل الأخبار و المعلومات (المتصلة بالتقدم التكنولوجي) على أكبر عدد ممكن من المستقبلين⁽⁴⁾.

بهذا يكون الاتصال هو نقل و تبادل معلومة أو دلالة أو مفهوم بين كائنات واعية بتوسط رسالة محددة في إطار زمن و مكان محددين و قد تكون هذه الرسالة مطبوعة أو موجهة عبر الأمواج الصوتية⁽⁵⁾, الهدف منه هو تشكيل وجهة نظرياد لها أن تكون⁽⁶⁾.

يعني ذلك أن وسائل الإعلام الجماهيري وسائط تقنية يعتمد عليها المجتمع لتشكيل قيم أفرادها و اتجاهاتهم, و تزويدهم بالمعارف و الأفكار التي تؤثر في نموهم و طريقة تفكيرهم, و مما يزيد من أثرها هو إقبال الفرد عليها طواعية و عن رغبة دون الشعور بإجبار خارجي سيما الأطفال.

لقد نتج عن التقدم التكنولوجي و ما أحدثه من ثورة إعلامية أن أصبح البعيد قريب وتحول العالم إلى قرية يتصل سكانها ببعضهم البعض (بالصوت و الصورة) في كل وقت وبسرعة فائقة,

هذا الامتداد الواسع الناجم عن استعمال وسائل تقنية معقدة نتجت عنه التسمية "الإعلام الجماهيري"، أي الموجه للجميع.

أصبح الفرد اليوم في حاجة إلى كمّية كبيرة من المعلومات المتجددة باستمرار حتى يستطيع مواجهة متطلباته في عالم يتميز بالتغير النوع (7)

ويمكن التمييز هنا بين الإعلام والاتصال، حيث أن الأول هو انتقال المعلومة أو الخبر من مرسل إلى مستقبل بواسطة قناة معينة قصد إثراء معرفته أو توجيه موقفه في موضوع ما وذلك ما تقوم به وسائل الإعلام المعروفة والتي يشرف عليها فاعلون متخصصون.

وأما الاتصال فهو أوسع من الإعلام (الايجابي) حيث يتضمن إيقاع المستقبلين أو العالم الذي يتفاعل معه وضمنه.

في هذا الصدد يشير "ماكيل Mc QUAIL" إلى أنه من أجل فهم أثر التواصل ينبغي اعتباره من منظور تبادلي، لأن المرسل يؤثر على المرسل إليه ولكن فعله مشروط هو الآخر بشروط ومميزات المستقبل.

ويضيف «هالوران HALLORAN» أنه «ليس المهم أن نعرف كيف تؤثر التلفزة أو الجرائد على الجمهور ولكن أن نعرف أيضا ما الذي تفعله الفئات الاجتماعية في الوضعيات المختلفة وبأذواقها وقيمها ومواقفها المختلفة بالإعلام، أو بمعنى آخر كيف يستخدمها أناس واقعون في بنى اجتماعية مختلفة ولديهم ثقافات فرعية وأذواق متباينة (8).

وإذا كان علم الاجتماع الامبريقي يؤكد على نسبية تأثير وسائل الإعلام الجماهيرية فإن علم الاجتماع النقدي (مدرسة فرانك فورت) تؤكد على أهمية ودور النسق التواصل كآداة للمراقبة والضبط الاجتماعي، فمن يتحكم في وسائل الإعلام (ك موضوع تنافس اجتماعي) ؟ ولصالح من ؟ (9).

أما «ماك لوهان McLUHAN» وهو من أنصار الحتمية التكنولوجية فيعتبر أسلوب إيصال الخبر أهم من محتواه ويرى أن تغير المجتمعات إنما كان تحت تأثير تغير طبيعة وسائل الإعلام التي يتواصل بها البشر وليس مضمون ما تنقله هذه الوسائل (10).

وقد رد عليه «كاتز KATZ» بشكل مرن لما قال، «ليس من غير المعقول أن نعتقد بأن تكنولوجيات الاتصال تربطنا بعضا ببعض وفقا لأساليب مستقلة إلى حد بعيد عن المحتوى المنقول».*

ويعتبر «سينات SENNETT» أن التقدم التكنولوجي الذي مس وسائل الإعلام أدى إلى ضياع «الإنسان العمومي» ليحل بدله «المجتمع الخاص (الفردية) أو ألحيمي L'INTIME».

في نفس السياق يقول «هبرمان HABERMAN : «إن وسائل الإعلام الحديثة تستقطب الجمهور ولكنها في نفس الوقت تسلبهم إمكانية تناول الكلمة أو التعبير عن رفضهم (....) وهو ما يعبر عن الانتقال من عالم المواطن الفرد إلى عالم الفرد النرجسي».*

ويضيف بقوله: "حتى الإشهار الذي كان في زمن مضى وسيلة للكشف عما يقوم به الحكام وإظهاره للملأ بإعلان عنه وإخراجه من السرية، أصبح اليوم يعمل على ترقية السلع الخاصة وحث الناس على اقتنائها من خلال الإغراءات المختلفة (هدايا، تخفيضات...)" .

«لما يفرض العالم الخاص نفسه على العمومي تتحول الأسرة إلى برج محصن ضد العالم العمومي، عالم الحرب والخطر، عالم الاقتصاد، عالم ألأ أخلاق، ذلك العالم الخارجي المهدد».

لم يعد المجال العمومي مجال للتبادلات المعبرة بين الأفراد مما أدى إلى زوال البعد -المسرحي- الفاعل من الحياة ومعها معالم الهوية الاجتماعية (العلاقة بين الداخل والخارج) .

لقد فرض منطق (تيلي TELE) أو الاتصال عن بعد، نفسه اليوم وألغى المسافات والحدود بين المجالين الخاص والعمومي.

إن تنظيم العمل اليوم في المؤسسات و التوزيع الغير المركزي للمهام التي يقوم العامل بتنفيذها عن بعد من خلال نظام تواصل الكتروني يترتب عنه تحطيم هوية الفئات العمالية داخل المؤسسة لأنه يزيد من تراجع المجال العام مقابل توسيع الإشهار بالمجال الخاص، و يصبح الخيال واقع والواقع مجرد.⁽¹¹⁾

من أجل أي مشروع:

يمكن للإعلام من جهة أخرى أن لا يتلاءم مع حاجات وتطلعات المجتمع لاسيما إذا لم يكن هذا الأخير هو من ينتجه ويعتمد على ما يأتيه من مجتمعات أخرى تختلف في طرائق حياتها ومشاكلها وتطلعاتها⁽¹²⁾.

بل وإلى أبعد من ذلك قد يفقد إلى التوجيه الذي يجرده من وعائه فيتحول الاختلاف إلى صراع منهك بدل من ديناميكية مثرية، يلاحظ ذلك في تبين محتوى المواضيع الإعلامية وتناقض مرجعياتها والقيم التي تنقلها بالنسبة لواقع وتوجهات الأسرة الجزائرية.

تقول إحدى الدراسات السوسيولوجية حول الإعلام الجماهيري في الجزائر، " أن معظم البرامج التي تبث في القنوات الإعلامية سواء منها المستورد أو المنتج محليا، بعيدة عن قضايا الفئات الاجتماعية الواسعة وتطلعاتها الاجتماعية «*.

إن احتكار الدول المصنعة اليوم لمجالات الإعلام و تكنولوجيا الاتصال و سيطرتها على البث مباشر و النقل عن طريق الأقمار الصناعية و القنوات الفضائية (الانترنت)، يجعلها تسيطر

إعلاميا على غيرها من دول العالم لاسيما النامية منها و تفرض عليها برامجها بما تتضمنه من ضبط وتوجيه.*

ولعل السؤال الذي نطرحه هنا هو، ما مدى مشاركة المجتمع في وضع البرامج التي يستهلكها؟ وكيف يبني الرأي العام ومن أجل أي تنمية (بناء) ؟ وهل يتوافق ذلك مع توجه مؤسسات المجتمع، سواء تعلق الأمر بالتربية والتعليم أو بالترفيه أو بالاقتصاد... الخ ؟.

الإعلام و الطفل:

يلعب الإعلام بالنسبة للطفل دورا تربويا وترفيا وثقافيا وتوجيهيا حيث الصورة والصوت يشكلا وسيلتي جذب وتأثير على هذه الشريحة من المجتمع.

وقد بينت إحدى الدراسات الجزائرية* كيف أن الأطفال يستغرقون وقتا ليس بالقليل في مشاهدة برامج التلفزة، تتراوح من ساعتين إلى أكثر من 03 ساعات يوميا، وهو زمن ليس مخصص كله لمشاهدة القناة الوطنية وإنما لغيرها أيضا.

حيث أن معظم البرامج المستهلكة من قبل الأطفال هي رسوم متحركة، وهم يسعدون لمشاهدتها إلى حد جعل بعض الآباء يستخدمونها للضغط والعقاب، يمنعونها عن الأطفال إذا لم يستجيبوا لهم.

وانتهت الدراسة إلى أن الأطفال يندفعون إلى مشاهدة تلك البرامج بسبب حاجتهم إلى الترفيه والتسلية والترويح عن النفس وبشكل خاص أولئك الذين يعيشون أوضاع أسرية صعبة.

وبينت دراسة أخرى¹ أن البرامج الأجنبية تستحوذ على إقبال الأطفال أكثر من البرامج الوطنية، وهي تتمثل في الرسوم المتحركة والأفلام ذات الإيقاع الموسيقي، وهم يهتمون بالأغاني والرسوم والألوان والأبطال والحركات، وأنه لا دخل للأولياء في متابعة الأطفال للرسوم المتحركة لاسيما عندما يبلغون سن الدخول المدرسي*.

كما أن التلفزيون الوطني في غالب ما يعرضه على الأطفال، يضل بعيد عما هو معاش ولا يعالج واقع الطفل بشكل يساعده على الاندماج ويزيل مخاوفه وضغوط الحياة اليومية عليه.

وهو يتجه إلى فرض نوع من اللاواقعية المزمنة يمكن ملاحظتها في غياب الحدود بين الواقع والخيال فيما يعرض من برامج، حيث نجد مثلا، من جهة الأشرطة الخيالية ومباشرة بعدها تأتي أشرطة وثائقية أو ريبورتاجات ثم تتبعها رسوم متحركة أخرى تناقضها في الشكل والمضمون، فكيف يستطيع الطفل دون السادسة من العمر التفريق فيما يشاهده بين ما هو حقيقي وما هو خيالي لاسيما وأن الخيال اليوم أصبح يستخدم عناصر من الواقع ليبدو أكثر واقعية وإغراء⁽¹³⁾.

أليس الطفل يعيش مع التلفزة أزمنة متقابلة أحيانا ومتتابعة أحيانا أخرى لا يقدر على إدراك تسلسلها المنطقي (مرحلة ما قبل العمليات)⁽¹⁴⁾ ؟

كما بينت الدراسة للرسومات الذهنية التي يقوم بها الأطفال في الورشة بعد مشاهدتهم للبرامج التلفزيونية أنهم لا يعيشون القصة المتلفزة بقدر ما يعيشون اللحظات الانفعالية التي تتضمنها (الخوف، السعادة، الحزن، الشوق) خاصة البنات، وهي تلك التي يعيدون رسمها و الإشارة إليها على الأوراق⁽¹⁵⁾.

أما دراسة "هيملاويت"² البريطانية فقد توصلت إلى أن التلفزيون لا يدعم روابط الأسرة، على الرغم من انه يتوسط الأسرة.

كما أنه يتسبب في نقص الأنشطة الأخرى التي يفترض أن يمارسها الطفل مع والديه و مع ذلك نجد الآباء يقنعون أنفسهم بأن المشاهدة تجمع الأسرة و يدافعون عن التلفزيون مع تبرئته من ردود الفعل غير المرغوب فيها التي قد تظهر عند الأبناء.

و توصلت الباحثة إلى كون الطفل المدمن على التلفزيون هو في الغالب طفل لا يحس بالأمن في أسرته و يجد صعوبة في إقامة علاقة مع الأطفال الآخرين فيبحث على الأمن و الصحة مع التلفزة .

هل التلفزة هي المسؤولة على غياب الحوار في البيت ؟

كيف يستثمر الطفل ما يراه و يشاهده في علاقاته الاجتماعية؟

ماذا عن اتجاه الأسر لتحويل إلى قوقعة ينغزل أفرادها عن بعضهم البعض داخل البيت؟ و حتى قيام الآباء بمنع طفلهم من مشاهدة برامج معينة قصد تلقينه معنى القاعدة و النظام، تضل في غالب الأحيان ممارسة تعسفية مبنية على القوة و الجبر وليس على الشرعية و الرفق و المشاركة المقنعة (الضبط من الداخل) ؟

أليس الفضول دافع من دوافع التعلم عند الطفل؟ أليس من الطبيعي أن يسأل لماذا يمنع من مشاهدة بعض البرامج بينما يسمح له بمشاهدة أخرى؟ و لماذا يشاهد الكبار ما يمنعون من مشاهدته ؟ بل لماذا لا يشاهدون معه البرامج التي يحبها ؟

و كيف يفصل الخلاف بين الولد و البنت فيما يخص نوع البرنامج التي يرغب كل واحد في مشاهدته؟

هذا و يعتبر التلفزيون من أكثر الوسائل الإعلامية المستعملة لدى الأطفال في مجتمعنا، كما أنه ذا تأثير واسع بحكم انتشاره في العالم و دخوله جميع البيوت و المجالات العمومية.

يجمع التلفاز بين الإذاعة المسموعة و الرسائل المرئية بشكل يجعله أداة للمعرفة يساهم في تشكيل لغة الطفل و خياله.

و قد أدى مستوى انتشار هذه التكنولوجيا اليوم و تعود الأفراد عليها إلى نفاذ تأثيرها فيهم إلى ابعد مدى⁽¹⁶⁾.

فهو يستحوذ على المشاهد بحكم طبيعته و تمكنه من حاسي السمع و البصر اللذان هما من أهم مصادر الإدراك عند الإنسان، حيث يجعل الصورة الناطقة و المتحركة المتغيرة باستمرار تستقطب الانتباه من غير أن يكلفه ذلك جهدا⁽¹⁷⁾.

من أساليب تأثيره كذلك التكرار والإعادة، حيث تعرض الفكرة أو الموضوع باستمرار في أشكال متعددة و كأنه موضوع جديد إلى حد الرسوخ في الذهن.

هذا ما جعل التعود على التلفزيون يصل إلى حالة الإدمان LA TELEVISION DROGUE بالنسبة لكثير من الأطفال كما أشارت الباحثة «وين ماري»⁽¹⁸⁾.

و أصبح يشارك الأم و الأب في تنشئة الأبناء و كأنه والد ثالث أصبحت تمتاز به الأسرة في المجتمع الحديث⁽¹⁹⁾ بل و أصبح يشكل خطرا على عمليات التواصل الاجتماعي و التأمل و التعلم الذاتي والتخيل، على نحو جعله مصدر فعال للتنشئة الاجتماعية، يتعلم منه الأطفال السلوك الاجتماعي و العقائد و المعارف التي تشكل هويتهم الثقافية و الحضارية⁽²⁰⁾

بالإضافة إلى أهمية التعلم العرضي في المرحلة الأولى من حياة الطفل الذي تستمر أثاره أكثر من التعلم المقصود حيث أن ما يكتسبه في تلك المرحلة من حياته يتم بشكل عفوي⁽²¹⁾ بنفسح هذا المجال للتلفة لان تمارس الأثر البالغ عليه باعتبارها تستحوذ على إعجابه و انجذابه نحوها لزمّن طويل.

فالعمر المبكر الذي يبدأ فيه الطفل بمشاهدة التلفزيون و العدد الكبير من الساعات (ثلاثة ساعات في اليوم)⁽²²⁾ التي يقضيها أمام الشاشة -ليس زمن الاستهلاك التلفزيوني متساوي بين الشرائح الاجتماعية المختلفة- يؤكدان الدور الذي يمكن للتلفزيون أن يلعبه في عملية نمو الطفل معرفيا ووجدانيا^{3*}.

وهو ما يجعل التلفزة تشكل مدرسة أساسية للطفل لا تقفل أبوابها و لا تغيب ألعابها⁽²³⁾. و ذلك قد يكون على حساب نمو المجالات الأخرى من الشخصية التي تضل معطلة والمتمثلة في النشاط الجسدي الحيوي (نمو الإمكانيات الفيزيولوجية والحركية) والاتصال الاجتماعي، كما يهجر الطفل القراءة و اللعب مع الأتراب أو لوحده بما ينعكس عليه سلبا من حيث نمو مهاراته التصورية و الابتكارية و التواصلية.

ويؤدي الإدمان على التلفزة إلى تعطيل عقل الطفل الذي يصبح عاجزا بسبب تحكمه في تصورات و معتقدا ته ما يجعله يتحول إلى كائن خامل و تابع قابل للتوجيه وفق رغبات الغير*.

والتلفزة بغض النظر عن مضمونها الخارجي تتجه إلى التعبير عن رأي الأغلبية في المجتمع و كذا عن القيم والاتجاهات السائدة فإنها تشجع على التماثل وتضعف القدرات الفردية والإبداعية⁽²⁴⁾. وقد توصلنا كل من «ميرتون» و«لازارسفيد» في دراستهما على الإعلام الأمريكي الى «أن التلفزة تدعم اتجاهات وأنماط السلوك الجماعية على حساب الاتجاهات الفردية»⁽²⁵⁾.

أضف إلى ذلك الصبغة الشمولية المركزة للمعلومات و غير الدقيقة و التي غالبا ما تكون غير متناسقة مع قدرات الطفل المنطقية (مستوى النمو العقلي)، حيث يعجز الطفل على الربط بينها كما يعجز الأهل أيضا على التحكم في البرامج المعروضة بحكم عدم تخصصهم وانشغالهم.

ما يجعل الطفل يبقى وجها لوجه أمام التلفزة يمتص ما تلقه عليه دون محاكات عقلية، مع غياب التغذية الراجعة في عملية النمو الفكري و المعرفي، فتكون المعرفة التي يكتسبها من التلفزيون موجهة للذاكرة أكثر من توجيهها إلى تنمية المهارات العقلية و الإبداعية.

و يقدم له إجابات عن أسئلة لم يسبق له التفكير فيها بل و قد تخرج عن دائرة اهتمامه، كما تتوجه برأيه دفعة واحدة إلى فئات عمرية مختلفة دون تمييز.

حيث أن الطفل يفهم الأحداث بناء على خبرته الخاصة و ليس بناء على منطق البرنامج المعروض أمامه ؟

تحول الإعلام إلى قناة استقبال ؟:

بالنسبة لواقع التلفزيون الجزائري فقد سجلت برامجه المخصصة للأطفال تراجعاً ملحوظاً منذ الستينات من القرن الماضي.

كان أول برنامج طفولي يبثه بعنوان «جنة الأطفال» في 1967 ثم جاء بعده «الحديقة الساحرة» في 1971 ، ثم برنامج «بين الغابات الجميلة» من 1977 إلى 1985⁽²⁶⁾.

لم تكن تتوفر على مستوى التلفزة و الإذاعة الوطنية مصلحة متخصصة في برامج الأطفال إلى غاية نهاية الثمانينات، و حتى توصيات الملتقى الإعلامي المنعقد في مدينة وهران عام 1978 والذي كان من شأنه دراسة إمكان تكييف برامج الأطفال المبثوثة مع الواقع الاجتماعي، لم ترق إلى مستوى التطبيق و ظلت حبر على ورق.

و كان تعليق منتج برنامج «جنة الأطفال» حين سئل عن مضمون الحصة التي يخرجها للتلفزة الجزائرية قوله: «... هي حصة روتينية... و دور كل واحد فينا هو تبرير أجرته (...). تكون الأغاني و الرقصات و الاتصالات محددة مسبقاً يكتفي المنتج بالتصوير فقط».

فهل كانت النظرة آنذاك إلى الطفل الجزائري من زاوية التحضير للمستقبل أي كاستثمار قاعدي ضمن الصيرورة التنموية ؟⁽²⁷⁾.

سرعان ما دخل الإعلام الجزائري في مدار التبعية للدول المنتجة و المسوقة للإعلام فيما يتعلق ببرامج الأطفال، وتحولت التلفزة في البيت الجزائري إلى أداة لاستقبال ذلك ضاربة عرض الحائط الإنتاج الوطني رغم ضآلته، ما ساعد على تراجعها و تدني مستواه مقابل بروز العديد من العناوين الأجنبية التي تبثها الفضائيات الخارجية ، وأصبح التلفزيون الوطني يعرض لأطفاله برامج مدبلجة جلها منتجة خارجه ضمن ثقافات و أيديولوجيات مفارقة.

نذكر على سبيل المثال قناة SPACE TOON الناطقة بالعربية و التي تبث برامج مستوردة من الولايات المتحدة و اليابان إلى الدول العربية بعد دبلجتها في دول الخليج العربي (قطر والبحرين، الإمارات).

و حتى المبادرات التي تحاول بعض هذه القنوات القيام بها فيما يتعلق بتعليم الأطفال مبادئ اللغة العربية و القيم الأخلاقية عبر القصص و الأناشيد تظل مساحتها الإعلامية ضعيفة مقارنة بتلك التي يستحوذ عليه الإعلام العالمي⁽²⁸⁾.

ما يجعل العديد من القنوات العربية على منوال القناة الجزائرية تحصر دورها في الدبلجة لما ينتجه الغير من البرامج المختلفة بما فيها تلك الموجهة للأطفال، مثلما يفعل بالبرامج المنتجة في قناة ART TEENZ مثلا حيث لا يتعدى الإنتاج الخاص بالقناة الخليجية التي تستقبل تلك البرامج عبر القمر الصناعي مسلسلا عربيا واحدا في اليوم مدته 5 دقائق تحت عنوان «يوميات عبد الله» و هو شريط تربوي ذي توجه إسلامي، و ما عدا ذلك فكل البرامج التي تبثها مدبلجة مثل، «هيفي كروكيت» و «المحقق كونا»... الخ.

كذلك بالنسبة لقناة المجد التي تحاول نشر الثقافة العربية الإسلامية للأطفال من خلال برامج معينة مثل «أهلا أهلا» و «فكر و لعب» و «كلمة السر».

أيضا بالنسبة لقناة MBC3 التابعة لمجموعة دول الشرق الأوسط و التي تبث من مركز دبي الإعلامي، مسلسلات من الرسوم المتحركة طول اليوم جلها مستوردة مثل برامج «سلاحف النينجا» و «باتمان» و «سيدرمان»... و التي اشتهرت أيضا بحصة «عيش سفاري» التي يشارك فيها الأطفال من مختلف البلاد العربية.

و قناة الجزيرة للأطفال التي تنتج ما يقدر بـ 40 % من برامجها بالتعاون مع دول غربية (فرنسا).

هذه صورة مختصرة عن دور هذه القنوات العربية الذي يضل ضعيفا أمام الزحف الهائل للصناعة الإعلامية الأمريكية والأوروبية واليابانية والصينية والكورية وكل ما يترتب عليه ذلك من تنشئة للأطفال و تكوين لشخصيتهم و تهيئتهم ليكونوا افراد عالمين قبل أن يكونوا مواطنين في أوطانهم؟.

كشفت إحدى الدراسات السوسولوجية في الجزائر عام 2008* أن الأطفال يميلون إلى مشاهدة الرسوم المتحركة و البرامج التي تبث عبر القنوات الفضائية وفق ترتيب معين، على رأسها «توم وجيري» بنسبة 19 % تليها «الجاكسوسات» بنسبة 17 % ثم «دراغابول» 15 % و يليه «المحقق كونان» بنسبة 8 % و تستمر القائمة وفقا للترتيب التالي: «سبيدرمان» بنسبة 4 % ثم «باربي» ثم «الكابتن ماجد» و يليه «بوباي» ثم «نقار الخشب» و هكذا تستمر القائمة بالبرامج المدبلجة إلى جانب بعضها الذي يحتفظ بلغته الأصلية.

و توصلت الدراسة إلى أن الأطفال يميلون إلى الرسوم المتحركة التي تسودها مظاهر العدوان و العنف و هم يعجبون بالبطل و يحاكونه راغبين في أن يصبحوا مثله يوما ما. كما لاحظت الباحثة أن غالب الأطفال 60 % يشاهدون هذه البرامج دون مشاركة الآباء الذين يعتبرون هذه البرامج خاصة بالأطفال ولا حاجة لمراقبتها، أي إنها إيجابية و ترفيهية يحتاجها الطفل في أوقات الفراغ⁽²⁹⁾.

لوحظ أيضا أن الفئة الاجتماعية و المستوى الدراسي للوالدين يلعبان دورا في حرصهم و قدرتهم على متابعة و توجيه ما يشاهده أطفالهم في الشاشة، و أن الأطفال غالبا لا يطلبون من الوالدين أن يقدموا لهم تفسيرات حول ما يشاهدون لأنهم تعودوا أن تكون الرسوم المتحركة خاصة بعالمهم المتميز لا سيما و أنهم لاحظوا بأن الكبار لا يجلسون لمشاهدتها معهم. كما بينت كيف ينعكس اثر هذه البرامج على تصرفات الأطفال و أذواقهم و على طريقة تفكيرهم و تعاملهم مع أمور حياتهم ، فهم يطلبون من الأولياء مثلا شراء تيان مثلا شاهدوه عند البطل «سبيدرمان» أو «باتمان» أو «باربي» و قد يطلبون منهما إلصاق صورة «توم وجيري»، «دراغابول» على الكراس أو على المحفظة، و يعتقدون بأن المكر بالغير صفة حميدة و أن القوة والغلبة إنما تكون في العضلات و السلاح .

يظهر اثر تلك البرامج أيضا في الحركات العدوانية التي يمارسها الطفل مع إخوته أو أصدقائه وفي الألفاظ و العبارات المقتبسة التي يتلفظ بها.

ماذا عن أدب الطفل :

و أما ما يتعلق بقصة الطفل في الجزائر كجمال إعلامي يتصل بالتربية و يفترض أن يستغرق حيزا زمنيا لا يستهان به من وقت الطفل، فهو قطاع يكاد يخلو من الدراسات التاريخية و السوسولوجية و الأدبية⁽³⁰⁾.

لم تهتم الجزائر و لا غيرها من الدول العربية بقصة الطفل المكتوبة و المصورة إلا منذ احتكاكها بالمستعمر، و هو ما جعلها في فترات استقلالها تعيد أنتاج بعض تلك الأدبيات التي

كان المستعمر ينتجها لأبنائه (الفرنسية بالنسبة للجزائر)، إلى جانب الأقصوصة الشفوية ذات الطابع الشعبي التي إستمرت تداولها في أوساط المجتمع.

ويعتبر القرن 19 في أوروبا بمثابة العصر الذهبي لأدب الطفل، حيث ساعد على ذلك التقدم الاقتصادي والتكنولوجي في مجال الطباعة و تطور النشر و الإعلام و تراكم التراث الأدبي في هذا المجال و اهتمام النقاد به بالإضافة إلى تقدم البحث في مجالات علم النفس وعلوم التربية.

و لو رجعنا قليلا إلى الوراء لوجدنا أن أدب الطفل قبل أن يصل إلى ما وصل إليه مر بمحاولات و تجارب عدة، حيث برزت باكورة أدب الطفل الأولى في إنجلترا على شكل كتب مدرسية موجهة للتعليم أساسا، و بعدها نشر «أموس كومينيوس» سنة 1658 كتاب (العالم المرئي) الذي ضمنه رسوما الهدف منه اجتذاب الأطفال.

ثم ظهر بفرنسا عام 1697 أول عمل كلاسيكي في أدب الأطفال احتوى حكايات جمعها «شارل بيرول» من أشهرها، (سندريلا) و (الفتاة ذات القبعة الحمراء) و (ذات الجمال النائم).

و نشرت في إنجلترا عام 1726 أول رواية للأطفال «جوتتان سويفت» (رحلات جوليفر) كما ساهمت أعمال الناشر الإنجليزي «جون نيوبيري» في تطوير أدب الأطفال خلال هذا القرن بنشره لكتاب (الجيب اللطيف الصغير) في 1742 .

و في 1745 أنشأت أول دار النشر للأطفال بكنيسة القديس «بولس» و تولت نشر كتاب (الإنجيل و الشمس)، كما شهد هذا القرن إزدهار أدب الأطفال كفرع من الأدب، وظهرت رائعة «دانيال ديفو» (روبنسون كروزو) عام 1769، و (حذاءي جودي الصغير) عام 1765 التي تعد أول رواية كتبت للأطفال خصيصا.

أما القرن 19 فقد شهد انطلاق أدب الأطفال بوصفه فرعا مستقلا من فروع الأدب وفيه زودت كتب الأطفال بالصور و الرسوم الجذابة و المثيرة للخيال.

ومن أبرز ما أنتج آنذاك روايتا «لويس كارول» (مغامرات أليس في بلاد العجائب) 1862 و(عبر المرأة) 1871 و رواية «آنا سوير» (الجمال الأسود) 1877.

و كتابات «جول فيرن» (رحلة إلى مركز الأرض) 1864 و أصبحت الرسوم تشكل عنصرا أساسيا في كتب الأطفال تساعدهم على تخيل ما يقرؤون.

و في سنة 1933 ظهرت أول دار نشر حكومية متخصصة في كتب الأطفال (ميتسكايا ليترانورا) في روسيا بمبادرة الفيلسوف الروسي (ماكسيم غوركي) .

و لم يظهر العمل الجزائري في مجال أدب الطفل بصيغته الحديثة إلا بعد أن انتشر ذلك

في البلاد العربية عرف نضجا (مصر و سوريا و العراق و لبنان)، و برز العديد من الكُتاب والأدباء في هذا المجال مثل، «رفاعة الطهطاوي» و«علي مبارك» و«شوقي احمد» و«محمد الهروي» و«كامل الكيلاني»...الخ.

وعمدت الجزائر في بداية حياتها المستقلة لمواجهة أدب الأطفال الموروث عن الفترة الاستعمارية إلى استيراد بعض العناوين من البلاد العربية، مثل (نادر جحا) و(السندباد) وقصص المغامرات و (علاء الدين والمصباح السحري) و (ماجد)...الخ.

لم يكن المجتمع الجزائري يجهل الفن القصصي بل مثله مثل باقي مجتمعات العالم لديه تراثه الأدبي الذي يصب في وعاءه التاريخي و يتناقله شفويا عبر الأجيال .

كان أطفال العائلة يجتمعون حول الجدة يستمعون إلى ما نتكلم به عليهم من حكايات الأبطال و أساطير الماضي وكان يراود الأسواق قصاصون محترفون ينقلون إلى القرى والمدامر ما رأوه أو سمعوه من أخبار التجار والرحالة عن العالم، قصص كانت مزيج من الحقيقة والأسطورة، من الواقع والخيال.

وفي 1975 وبدعوة من الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية، أقيمت بتونس أول ندوة خاصة بالكُتاب العربي و تم فيها التطرق إلى كُتاب الطفل، تلتها عام 1984 دورة الجزائر التي خصص فيها مؤتمر اتحاد الكُتاب العرب العاشر المنعقد آنذاك أشغاله لموضوع (واقع الطفل في الأدب العربي).

وقد إنتهت أعمال هذه الدورة بالإعلان عن إنشاء هيئة متخصصة ضمن الجامعة العربية تعنى بثقافة الطفل (كتب، مجلات، صحافة، قاموس الطفل العربي) كما أوصى المؤتمر باعتبار ثقافة الطفل مادة أساسية في كل المؤتمرات المقبلة.*

لكن و رغم أهميته لم يصل ذلك إلى القضاء على النوع الأدبي التجاري الذي أصبح ينمو بوتيرة سريعة وازداد انتشاره بكل ما يتميز به من أسلوب قل ما يتوافق مع معاني الجمال و الذوق والإبداع الصادق ⁽³¹⁾.

هذا و يمكن اعتبار الفن القصصي أكثر أنماط أدب الأطفال انتشارا اليوم و هو يشمل قصص الخيال والمغامرات والحيوانات وأخرى تصف كيف يعيش الناس في البلاد البعيدة وقصصا تاريخية ودينية و أخرى ذات حيل بوليسية وقصص تتناول مشاكل اجتماعية أو شخصية يكون عادة الأطفال هم أبطالها.

و القصة كأسلوب تواصل لا تتفصل كما أشرنا عن التراث الشعبي الذي انبثقت عنه، حيث كانت في أصلها ذات شكل شفوي يشترك في الاستماع إليها الكبار والصغار في المحافل الدينية والحفلات و في الأسواق و حول موقد العائلة.

و لم تفصل في مضمونها و شكلها عن البساطة و هي تحاول تفسير مظاهر طبيعية و علاقات اجتماعية ضمن سياق خارق و متميز، و هي بشكل ما تعمل على تأصيل العلاقات مع الواقع والتاريخ و تساعد على معرفة الذات.

إن ملاحظة المنتج الأدبي الخاص بالطفل المعروض اليوم في السوق الجزائرية يجعلنا نتساءل عن علاقته بحاجات و اهتمامات الطفل الجزائري اليوم ضمن واقعه المعاش ؟ و علاقة الإبداع القصصي نفسه بمعطيات هذا الواقع التي تساعد على إدراكه ؟ بل و عن المرجعية الثقافية والتربوية للنص القصصي في حد ذاته ؟.

ماذا عن الأبطال في الأدبيات المترجمة مثلا و علاقتهم بقيم المجتمع الذي ينتمي إليه الطفل بغض النظر عن مستوى الترجمة ذاته ؟ .

يصعب على أدب الطفل- كما هو عليه اليوم عندنا - التجاوب مع إدراك هذا الأخير بفعل ديناميكية الواقع اللغوي المتمثلة في تعدد اللهجات (العامية) والكلمات باللغات الأجنبية . و حتى تلك المد بلجة التي لا تتفق قيمها و مواردها مع الثقافة والتراث الجزائري و لا مع نفسية الطفل و مستويات نموه و لا مع متطلبات التنمية و المواطنة.

نجد مثلا من لا يحترم صفة الحيوان و خصوصياته كما هي في الطبيعة (قصة، الأرنب البطل أو العصافير الطليقة) التي تصور الأسد مثلا رمزا للأنانية و التسلط و ناقص في عدله يستعبد الضعاف و تجعل من الأرنب كائنا ذكيا و عاقلا و منصفًا ومن الخنزير حيوان صديق وأمين⁽³²⁾.

فهل للطفل يا ترى القدرة على إدراك المغزى أو الغاية الفنية التي يقصدها الكاتب؟ أليست المحافظة على شروط المقارنة و التشبيه أساسية لأدب الطفل في هذه المرحلة من العمر (قبل سبعة سنوات) ؟.

إن عدم مراعاة القدرة الإدراكية للطفل وغياب النقد لأدبي و غلبة الطابع التجاري للكلمات، يفسح المجال أمام هذا النوع من الانزلاق⁽³³⁾.

يفتقر أدب الطفل عندنا كذلك إلى العناية بالجانب الجمالي و العمل على ترقية الذوق الفني لديه , كما أنه أبعد ما يكون عن المعرفة العلمية و الموضوعية بعالم الطفولة و ما يتصل بها من سوسيولوجيا و انثربولوجيا و سيكولوجيا و بيداغوجيا وتاريخ و علوم الاتصال، و لا توجد لديه عناية بالخصوصيات البيئية للطفل الجزائري، سواء منها الثقافية كالعادات و التصورات و الممارسات التي ينشأ عليها أو الطبيعية-جغرافية (طفل الصحراء ليس كطفل السهول أو الجبال , كما أن طفل المدينة ليس كطفل الريف و البادية و الطفل الذي يقيم بالقرب من البحر ليس كطفل الهضاب أو الجبال) .

كما يزيد غياب الدراسات العلمية فيما يخص أدب الطفل الطين بله , حيث أن مقياس الطلب وحده لا يكفي لان الطفل واقع تحت ضغط الدعاية الإعلامية والعرض التجاري المغري والميل إلى التقليد والمحاكاة , هذا يجعل ما يطلبه ليس دائماً هو ما ينفعه, و كذلك ما يشتريه الأولياء يتأثر بثقافتهم و محيطهم الاجتماعي بالتالي هل يقوم الإعلام الجماهيري بدوره في هذا المجال ؟ فهو وإن كان عاجزاً من حيث مستوى الإنتاج الإعلامي و الأدبي لا يمنع ذلك من أن يستدرك الوضع بنوع من الحماية الثقافية على منوال ما هو وارد في مجال الحماية الاقتصادية ؟ هل يستطيع الطفل مثلاً التلقي بشكل مباشر الأفكار و المعاني من غيره, و تغيير لغته الذاتية EGO CENTRIQUE لتصبح لغة اجتماعية LANGAGE SOCIALISE ؟ (34).

الآن يستحسن أن تكون الألفاظ المستخدمة في القصة أو الموضوع الإعلامي نابعة من وسطه القريب والمألوف لديه ليتم في مرحلة أخرى تكريسها و تحويلها من هذا المجال الخاص إلى المجال العام الواسع* .

أما بالنسبة لقصص الأطفال عندنا فالرسالة تكون في غالب الأحيان ذات وجهة واحدة نظراً لابتعاد الكاتب عن عالم الطفل وهو ما يجعل هذا الأخير يستقبل النص في صمت تحت ضغط التوجيه التربوي (من الراشد) .

يلاحظ كذلك ميوع معاني الألفاظ بل وغوضها أحياناً (غياب الشرح أو استعمال المترادفات) وعدم إدراك الطفل لمدلولها في واقعه المتداول و خبراته المباشرة ما يخلق لديه صعوبة استثمارها ؟ (35).

وباعتبار القاص في الجزائر, كما يلاحظه النقاد غالباً ما لا يكون متخصصاً في أحد الفنون فيجمع بين الكتابة للكبير والصغير ويقع في مفترق الطرق بين التبسيط والتعقيد لذاتهما (36).

أما الرسم والصور فهي بالنسبة للطفل لغة ثانية تكمل لغة الحروف وتساعد على إيضاح الفكرة (37). والصورة عند الطفل شكل من أشكال التعبير أكثر من كونها وسيلة لخلق الجمال, فهو يرسم ما يعرفه وليس ما يراه ثم يبدأ تدريجياً ينو ليخرج من عالم الخوارق إلى العالم القريب منه, فيكون أكثر استعداداً لاستيعاب الرسومات و الصور الواقعية التي تتصل ببيئته, دون أن يعني ذلك الوقوع في التكرار والالزام و ما يبعث على الملل.

و الملاحظ أيضاً في أدب الطفل في الجزائر أن القاص مثلاً هو نفسه الرسام و هذا يجعله أكثر ميلاً إلى منح اللغة الدور الأساسي على حساب البعد الخيالي و الإبداعي للصورة التي من خلالها يصل الطفل إلى المعنى الخفي للنص.

هذا مع الإشارة إلى أن إلزامية الصورة في أدب الأطفال كعامل أساسي لإثارة الخيال قد يجعلها أحياناً تنقلب لتؤدي وظيفة مخالفة لذلك, بأن تقطع جناح الخيال ذاته (38) .

ولكن هل تكفي الصورة لتكون أسلوبا يقتبس منه الطفل معاني الجمال ويرقي ذوقه الفني ونظرته النقدية ؟ أليست في ظل التبعية أداة للتنميط و التغريب أكثر ؟⁽³⁹⁾..

أم أنها تستلهم من الواقع ما تريد أن تقدمه للطفل ؟ أم أن النص يعمل على تهجينها وإفراغها من محتواها الخلاق بتطويقها و ت v رويدها لتكون مجردة من محتواها التاريخي ؟*

لم يبق للطفل أمام ضغط وسائل الإعلام المرئية و المسموعة الكاف من وقت الذي يسمح له بالاهتمام بالكتب و المجالات, و هو ما جعله يميل أكثر إلى القصص المصورة⁽⁴⁰⁾.

هل الصورة تعود الطفل على إدراك أنماط اجتماعية معينة أم تدله عما يتجاوزها؟ هل يساعد الأولياء طفلهم على ملاحظة الصورة وتجاوز ظاهرها ؟ هل الصورة تكرر لما هو موجود في النص أم أنها شيء آخر ؟ ماذا عن جدلية العلاقة بين الشكل و المضمون أو الكلمة و الصورة ؟ هل تحتوي الصورة على الكلمات و الكلمات عن الصورة ؟ .

ماذا عن المضمون الايديولوجي أو المستور الذي لا ينطق, كالعلاقة بين الريف و المدينة, أو توزيع الأدوار الاجتماعية, أو التمييز بين المهن المختلفة, ماذا تعني البيئة و ما علاقتها بالإنسان, ماذا عن مراحل التاريخ المختلفة, عن العلاقة مع شعوب العالم, العلاقة بين الجنسين....الخ ؟ .

إذا كان النمو هو التوافق باعتبار هذا الأخير ينتج عن تجاوز للعقبات, فهل يستغل الخطأ والفشل الذي يعيشه البعض في بناء الشخصية عن طريق الإدماج والتقويم ؟

إذا كانت الأصول الانثروبولوجيا للإنسان ترجع ميله إلى القصة إلى عمق التاريخ البشري, فإن المقارنة بين القصة المروية للطفل من قبل رواة الحضارة الشفوية (كبار السن) مع تلك المقصودة عليهم اليوم تبين أن الأولى كانت تنقل الخبر و الحكمة و تربط الأجيال بماضيها الحضاري بينما اليوم تحولت إلى مجرد وسيلة للترفيه والربح.⁽⁴¹⁾.

الخلاصة:

إن الوضعية التاريخية التي تعيشها المجتمعات النامية تجعلها تتعامل مع مظاهر التغيير بشكل متميز. وليس ذلك بأمر غريب عن غيرها, فقد طرحت هذه الإشكالية من قبل على البلدان التي أصبحت اليوم تصنف على أنها " متقدمة".

تتميز المجتمعات النامية في كونها تعيش تحولات داخلية و خارجية تمتاز بالسرعة و الامتداد على خلاف ما كان حال غيرها من البلدان "المتقدمة".

حيث كان لتلك المجتمعات المتسع من الوقت لتحقيق التغيير و الانتقال من وضع اجتماعي- تاريخي لآخر.

أما بالنسبة للمجتمعات النامية فليست دواعي التغيير داخلية بل إن للاحتكاك الخارجي أثر بالغ في ذلك.

وإذا كانت الحداثة اليوم تطرح إشكالية مستقبلها من خلال مجتمعات ما بعد الحداثة فإن المجتمعات النامية بدورها تطرح إشكالية تجاوز هذه الأنماط المنقولة (المصدرة) التي تستلها وتحد من قدراتها الإبداعية ؟

لقد جاءت العقلانية شعاراً لتحرير الإنسان من أشكال التبعية و كعنوان لسيادته الكونية, غير أن هلهه جعله يتقادى في البحث عن الهيمنة وفي صنع ما يطور قوته فوق أسيرا لذلك و تحول من جديد إلى عبدا لما صنعه.

بعدها ما كانت غاية التغيير هي تحقيق السعادة و الرفاهية على الأرض, تحولت عندما عجز الإنسان على تجاوز حدودها الحضارية (براديجم التوزيع) إلى باحث عن مخرج مما آلت إليه , ما جعله يعيد طرح مفهوم الإنسان ذاته من وجهة العرق و الدين و الثقافة و الطبقة الاجتماعية و الجنس...الخ.

ليس الذوبان في المجتمع العالمي شرط للنمو و الازدهار و إن كان زوال الحضارات أمر قد حدث في التاريخ الإنساني.

إن الأسرة الجزائرية اليوم في تحولها نحو الشكل البسيط لا تعيش متفردة في المجتمع بل تربطها معه شبكة من العلاقات تختلف عن تلك التي عرفها الشكل المركب.

يتجه التقسيم الاجتماعي للعمل نحو المزيد من التخصص في الأدوار الاجتماعية من جهة و إلى مزيد من التبعية للمؤسسات و التنظيمات الاجتماعية المرتبطة بالأسرة و التي أصبحت توفر لها شروط البقاء و الاستقرار و تساعد على الاختصاص في وظيفتها الاجتماعية , حيث أصبحت هي الأخرى تتجه نحو المزيد من التخصص في أدوارها و في المجالات كالتعليم, الوقاية, العلاج, ال تربية, الصناعة, الزراعة, التربية, الصناعة, الزراعة, الأمن, التشريع, الإعلام و غيرها, وهي مؤسسات مدعوة اليوم إلى التطور لتخفيف العبء على الأسرة و السماح لها بالمزيد من الاختصاص.

و إذا كانت الأمور تبدو من الناحية النظرية بسيطة فإنها عمليا على خلاف ذلك حيث تفاوت و تعارض الأدوار الاجتماعية التي تتولاها تلك المؤسسات و الذي لا زال ينعكس سلبا على الأسرة.

و لعل من الأمثلة على ذلك وضع المؤسسة الإعلامية التي لا تسير و لا تساعد الأسرة في عملية تثقيف و تنشئة الأبناء بل و إلى أبعد من ذلك يتسبب الفراغ الناتج عن ضعفها في هذا المجال إلى فصح المجال أمام الشركات العالمية لتتولى ذلك رغم كونها تعمل في اتجاه لا يسير تناغم المجتمع و ازدهاره.

قائمة المراجع :

1. Durkheim, e, 1922, Education et sociologie, p u f, Paris 1er édition, 9em edition 2005. P. 51.
2. op.cit. p.45.
3. Giddens, a, 1987, *La constitution de la société*, p u f, Paris, P. 75.
- * - (NTC Nouvelle Technologie de Communication هو اختصار لعبارة تكنولوجيا الاتصال الحديثة)
4. Le Robert, 1999, Dictionnaire de sociologie, Seuil, Paris, p.206.
5. ع, أ, وطفة وش.ع, جاسم, 2004, علم الاجتماع المدرسي-بنوية الظاهرة المدرسية ووظيفتها الاجتماعية, المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع, بيروت, ص 206.
6. ع, الشخبي. و م, العجيمي, 2008, علم الاجتماع التربوي , دهر الجامعة الجديدة , الإسكندرية. ص 334.
7. Akoun .a, 1994 ,La communication démocratique et son destin, p u f, Paris 60.
8. op.cit. p 92
9. Wolton. d, 1990, Eloge du grand public, Flammarion, Paris, p
10. Macluhan, m, 1968 ,Pour comprendre les medias, Mam-Seuil, Paris, P,68
- Akoun .a, 1997, Sociologie des communications de masse, Hachette, : للمزيد أنظر : Paris
- * للمزيد أنظر : Habermas, op.cit.
11. جمال, الزرن, 2005, « تلفزيون الواقع » بداية الواقع أم نهاية الأسطورة » , مجلة الإذاعات العربية, إتحاد الإذاعات الدول العربية, تونس.
12. Megherbi.a, 1985, Le miroir approuvé, ENAL-OPU-GAM, Alger. p-p.5992-
- * 98 % من الأفلام المبتوثة في السينما الجزائرية مستوردة من المجتمعات الغربية والأمريكية منها بشكل خاص.
13. 13)- Op.cit, p.174.
- * للمزيد أنظر , ندوى, مامادو, 1997, العولمة و علاقتها بالتنمية الذاتية و التعليم في إفريقيا, مستقبلات 101 , مركز مطبوعات اليونسكو , م (27) , ع (1) القاهرة .
- * د. م . زعموم,, 2005 برامج الأطفال في التلفزيون الجزائري -نموذج الرسوم المتحركة من 1999 إلى 2001, دكتوراه دولة, قسم الإعلام و الاتصال, كلية علوم الاتصال, جامعة الجزائر.
- * ت, بن بوزيد . 1997, الطفل والتفاعل مع برامج الباربول , رسالة ماجستير, قسم الإعلام والاتصال, كلية علوم الاتصال, جامعة الجزائر.
- * تبين الدراسة أن 70 % من سكان مدينة الجزائر مثلا يمتلكون هواتفات مقفلة, للمزيد انظر : م, بومخلوف. واقع الأسرة الجزائرية والتحديات التربوية في الوسط الحضري, 2008, مخبر الوقاية و الارغنوميا , جامعة الجزائر.

14. Planque, b, 1977 ,Des images pour les enfants, Casterman, Paris, P.158.
15. Piaget, j, 1936, La naissance de l'intelligence chez l'Enfant, Delachaux et Niestlé,
16. L'enquête C2, 1973 ,Etude sur la réception de la télévision par les enfants des « cours élémentaires » de la région parisienne, Paris ? **Service des études d'opinion de l'ORTF.**

* هـ، هيملاويت. وآخرون ، 1969 ، التلفزيون و الطفل :ترجمة ، سعيد محمود شكري ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة.

17. إ، إمام. الإعلام الإذاعي و التلفزيوني ، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ، ص 131.
18. د، هندي. ص، 1983 أثر وسائل الإعلام على الطفل، دار الفكر و النشر و التوزيع، الأردن، ص 5.
19. علي أسعد، وطفة و علي جاسم، الشهاب، 2004، علم الاجتماع المدرسي، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت، ص 218.
20. ا، دكاك. 1989، دور التلفزيون في تنشئة الأطفال سياسيا في القطر العربي السوري، رسالة ماجستير في علم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة دمشق، ص 117.
21. محمد. ب، الحضيف ، 1998، كيف تؤثر وسائل الإعلام ، مكتبة العبيكان ، الرياض، ص 33 .

22. Wallon. h. 1994, L'évolution psychologique de l'enfant, ENAG, Alger. p. 76

23. م ، أ، تركي، 1984، الإعلام و أثره في شخصية الفرد ، مجلة عالم الفكر ، العدد 4 ، جانفي-فيفري-مارس ، الكويت.

* أبناء المزارعين و الإطارات المتوسطة و العليا يشاهدون التلفزة بنسب أضعف من أبناء التجار الصغار و الحرفيين و العمال البسطاء، ويرجع هذا الخلف إلى القدرات المتباينة فيما يخص استخدام أساليب الترفيه الأخرى إلى جانب انشغالات الأولياء التي لا تسمح لهما بالبقاء مع أبنائهما في المساء عند الرجوع من الشغل أو حتى في نهاية الأسبوع، ص 105. للمزيد أنظر المرجع السابق: L'ENQUETE C2 , ORTF , 1973

24. كرام، جان جبران، 1988، التلفزيون و الطفل، دار الجيل، بيروت، ص 9.
- * للمزيد أنظر : عقيل، أديب، 2001، التلفزيون و تحديات التنشئة الاجتماعية ، مجلة النبأ ، العدد 64 كانون الأول.
25. ص. خ، أبو إصبع. 1999، الاتصال و الإعلام في المجتمعات المعاصرة، دار الأرام، عمان، ص 83.

26. Le robert, op.cit. p 283.

27. س، تاتي. 2001، تطوير برامج الطفل في التلفزيون ، مجلة الشاشة ، الجزائر، ص، 20.
28. Moussa .f, 1986, Les représentations de la crèche chez la mère travailleuse, Thèses de doctorat de 3em SYCLE, Département des Sciences Humaines, Université RNE DESCARTES, PARIS, P.55.

29. المنصف العياري, القنوات التلفزيونية المتخصصة في برامج الأطفال, مجلة فصلية للإذاعات, العدد 4, 2005, ص : 68.
- * أنظر : مهديّة, شعبان , 2008 , أثر الرسوم المتحركة في تنمية السلوك العدواني للطفل الجزائري , رسالة ماجستير, قسم علم الاجتماع , كلية الآداب و العلوم الاجتماعية , جامعة سعد دحلب , البليدة -الجزائر .
30. نفس المرجع , ص, 150.
31. ع, عميش, 2003, قصة الطفل في الجزائر, دار الغرب للنشر و التوزيع, الجزائر, ص, 7.
- * المؤتمر الرابع عشر لاتحاد الكتاب العرب, 1984, الوثيقة رقم 13, الجزائر.
32. ع, عميش, مرجع سابق, ص 63
33. بن عيسى. ح , محاضرات في علم النفس اللغوي , الشركة الوطنية للنشر و التوزيع , بدون تاريخ , ص : 90.
34. عميش . ع, مرجع سابق, ص, 64.
35. بن عيسى .ح, المرجع السابق.
- * لا يجوز استعمال المفهوم المجرد في هذا المستوى من العمر لأن الطفل لا يدرك إلا الملموس المتميز (اللون, الشكل, المحسوس).
- للمزيد أنظر : « parlons-en », Les livres de vos enfants, 1985, Epin , b, Messidor-La Farandole.
36. ع, عميش, مرجع سابق, ص, 69.
37. نفس المرجع , ص, 5.
38. ح, شحاتة. 1989, قراءات الأطفال, الدار المصرية اللبنانية, القاهرة., ص, 77.
39. Bernard. p & autres, 1980, Des images pour les enfants, Casterman, Paris.
40. نفس المرجع.
- * Mills, c, w, Le rôle de l’histoire, L’homme et la société, Revue internationale de recherche et de synthèse en science sociale, année 1967, Vol 3, N°3, Paris, PP 133155-.
41. Giuseppe flores d’arcai, 1985, Littérature et illustration dans le monde de l’enfance, Bordas, Paris, p, 43.
42. Epin, b, op.cit, p.151.